مدرسة المقتطف

الورد

في حياة خلفاء العباسيين

الورد[1]

في حياة الخلفاء العباسيين

لصلاح الدين المنجد

الوردُ جمال الربيع ومنبعُ الطيب وحلية الرعابيب . غرم به الشعراء فجعلوه أبدان العذارى، وخدود المِلاح وأنفاس الحبيب . واتخذه الأوائلُ من النصارى، رمزاً ينثرونهُ مع الزّهر على قبور الشهداء . وهو إلى ذلك مَهْوى الأنفس الرقيقة: تَهشّ له الروح ، ويهفو الى مرآه القلب ، فان لونهُ الصافي ، وطيبَه المكر، ورقّتَهُ الناعمة ، لما يُذهبُ الشجى ، ويهزّ الحس ، ويناغي القلوب

لا جرَم أن الفتنة بالورد لا تصدر إلاّ عن وفرَة الشعور، ورهافة الذوق ، وغضوضة الطبع . فاذا أتيح لمن أوتي ذلك، مباهج النعيم ، ولذاذات الترف ، كان للورد عنده المحل الأول والشهوة الكبرى . وتعجّل بالتمتّع به ، لأن أيامه ، كما يقولون ، قِصارٌ كأيام الهوى ، ولفحهُ مسكرٌ كنهاض الحبّ الوليد

والباحث في تأريخ العصر العباسيّ ، يجد أن الترف والنعيم هدّبا النفوس وأرهفا الاحساس ، وأن اختلاط العرب بالفرس الذين كانوا يحتفلون بالورد ، ويقيمون لهُ الاعياد ، دفعهم الى الاعجاب به وتمجيده . فذكرهُ الشعراء في ممدوحه تارة ومحبوبه أخرى . واتخذته القيان حلية يزينّ به قدودهنّ ، ويعطرّنَ بعطره أجسامهنّ . ويُفرحنّ به أحبّتهنّ وألافهنّ [2]. ونثره العُشّاق على مفارش الحبّ ، واتخذوه رسائل الحبّ الى الحبّ ، كأنه كلمات حلوة ، فيها الشوق والروح والحنين . وحفلَ به بعض الخلفاء ، فكانوا يفرشون مجالسهم بفرش كالورد ، أو ينثرونه في الفضاء والهواء ، أو يشربون من منظره وأرجه

وقد ألّفوا عن الورد الرسائل الحسان . فمنها كتاب « العقد منتظم الورد » لمحمد بن أحمد الوشّاء [3] وكتاب « المفاخرة بين الورد والنرجس » لأحمد بن

(١) حديث أذيع من راديو دمشق . ٢) انظر مقالة « بين الورد والنرجس » في مجلة الرسالة المجلد ٤٥٣ ج ٩ ص ٤٢ ٣) المقتبس ج ٢ ص ١٣٨

أبي طاهر [١] ، وكتاب « الورد » للثعالبي [٢] ، وكتاب « الانوار والثمار في الورد والنرجس وجميع الانوار ، وما وَرَد فيها من الأشعار ، وماجاء فيها من الآثار والاخبار » لمحمد بن عمران المرزباني [٣] وغيرها

ولعلَّ البحثَ يطول اذا فصَّلت ، على أني سأحصّ كلامي بذكر ما أثر عن الخلفاء العباسيين في شغفهم بالورد وولوعهم به . فان في ذلك طرافة ومتعة ، وتبياناً لناحية لم يطرقها الباحثون ، وحدَّها ، بالتفصيل

* * *

ذكر الطبري [٤] أن يعقوب بن داود وزيرَ المهديّ ، دخل على الخليفة يوماً فاذا هو في مجلس مفروش بفرش مورَّد ، مبناه في السرو يشرف على بستان قد اكتسى بالاوراد والازهار ، فكان ذلك كلّه مورّداً يشبه فرش المجلس الذي كان فيه . قال يعقوب : فما رأيت أحسن منهُ ، ثم دخلت جارية ما رأيتُ أحسن منها ولا أشطر قواماً ولا أحسن اعتدالاً ، وعليها ثياب من نحو لون الورد

فهذا التوافق بين لون الفرش ولون الزهر ولون الثياب ، غاية في الذوق والفن ، ثم انه في اختيار لون الورد البهيج لاولئك جميعاً رداءة حس ونعومة ضبع ، قد تصادفهما في الغرب في هذه الايام

وبلغت فتنة الرشيد بالورد مبلغاً شديداً . دخل ابراهيم الموصلي ، أمير الغناء عليه يوماً وعنده جارية أديبة شاعرة ، وبين يديه طبق ورد . فقال الرشيد : يا أبا اسحاق . أما ترى حسن هذا الورد ولطارته ؟ فقلت لزيُّك يا أمير المؤمنين أحسن منهُ ! فقال : قل فيه شيئاً . فقلت :

كأنهُ خدٌّ موشوق يقبّلهُ ... فمُ الحبيب، وقد أبدى به خجلا

فقالت الجارية في الحال :

كأنهُ لونُ خدي حين تعتبني ... كفُّ الرشيد لأمر يوجب الخجلا . . !

فسرّ الرشيد سروراً عظيماً . وقال قم يا أبا اسحاق . . فقد حركتني هذه

---

١ (معجم الادباء ، طبعة مرجوليوث) ج ١ ص ١٥٥

٢ (عيون التواريخ لابن شاكر المخطوط في الكتبخانة العامرية بدمشق) الجزء الثاني عشر

٣ (معجم الادباء ج ١٥ ص ٥٠)

٤ (الطبري ، طبعة أوربا) في حوادث سنة ١٦٦ ج ١٠ ص ٥١١

الجارية ، بخلابة كلامها وحسن جوابها [1]

وجميل جداً أن يكون الورد حديث الخليفة وندمائه ، ومثير لذته وطربه ، ومهوى نفسه وروحه . ولا يتاح هذا الا لمن هذبته الحضارة . وفتنه الجمال في كل صورة من صوره حتى في الورد العطر البهيج

أما المأمون فقد كان معجباً بالورد ، معجباً بمن يحبه ويهواه ، رُفع اليه مرّة أن حائكاً يعمل السنة كلها ، لا يتعطل في عيد ولا جمعة . فاذا ظهر الورد طوى عمله ، وغرّد بصوت عالٍ

طاب الزمان ، وجاء الورد فاصطبحوا ما دام للورد أزهارٌ ونوّار

فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنّى

اشرب على الورد من حمراء صافية شهراً وعشراً وخمساً بعدها عددا

ولا يزالون في صبوح وغبوق ما بقيت وردة . فاذا انقضى الورد ، عاد الى عمله وغرّد بصوت عالٍ

فان يبقني ربي الى الورد أصطبح وإن متّ ، والطفي على الورد والخمرا

فقال المأمون : لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغي ان نعينه على هذه المروءة . فأمر أن يدفع له في كل سنة عشرة آلاف درهم في زمن الورد [2]

لقد كان المأمون الى جانب سعة عقله وغزارة علمه حلو النفس رقيق الحاشية. ولا شيء أدلّ على هذا من الحادثة التي ذكرناها فلقد عدّ حبّ الورد والميل إليه والشراب على وردته وطيبه من المروءة ، وأعان صاحب هذه المروءة لتمتع نفسه بالورد وبالخمر ما شاء له طبعه المرهف وذوقه الرقيق

وقد ذكر الاتليدي ان المأمون شرب يوماً ومعه يحيى بن أكثم . فمال الساقي على يحيى حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقى عليه الورد والريحان حتى يدفن فيها كأنه ميت . وصنع بيتين من الشعر وقال لمغنيته خذي العود وغني على رأسه فغنّت

---

(١) نشوار المحاضرة ، ص ٢٤٨ ج ١ من المستطرف

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٣ ، وانظر زهرة الآداب وثمر الألباب ص ١٠٣

ناديته وهو حيٌّ لا حراك به مزمّلٌ في ثياب من رياحين
فقلت: قم، قال: رجلي لا تطاوعني فقلت: خذ، قال كفّي لا توالبني (١)

وكأن منظر الورد، وما قيل في الورد، كانا يثيران إحساس المأمون، فيجود على حامله أو قائل الشعر فيه، أو مغنيه، بالمال الكثير، جودَ من لا يخشى عاقبة ولا يحسب حساباً. قال إسحق بن ابراهيم: «دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد. فقال لي يا أبا إسحاق، هل قلت شيئاً في الورد؟ قلتُ: أقول بسعادة أمير المؤمنين. وفكّرت ساعة فلم يفتح عليّ بشيء. فخرجت من عنده، وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً. فلم يفتح عليّ بشيء. فما أصبحت غدوتُ إلى دار الخلافة. وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون، ومعهُ سبع وردات، على صينية فضة، ينتظر الاذن في الدخول بها عليه. فسألته المهلة بها قليلاً، فامتنع. فسألته ثانية وقلت: لك بكل وردة دينار إن أمهلت! فأجابني الى ذلك. فدفعت له سبعة دنانير، وأحببتُ ألاّ يصل اليه الورد قبل وصول الشعر. وخرجتُ أقصد الازقّة لعلّي أسمع شيئاً من أحد أو يلمع خاطري ولو ببيت واحد. فبينما أنا كذلك، وإذا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول:

اشربْ على ورد الخدود فإنه أزهى وأبهى، فالصّبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورّد وجنةٍ حمراءَ جاد بها عليك حبيبُ
صبّح المدام بياضها فكأنه ذهبٌ بقالب فضّة مضروبُ...

فلما سمعته زلتُ عن دابتي ودخلتُ مسجداً بالقرب منه فطلبته وسألته أن يملي عليّ. فعجّل وقال إن أردتَ فأعطني لكل بيت عشرة دنانير! فدفعتها له، واستملیتها منه، وعدتُ... ودخلت أنا وغلام الفضل. وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستار. فلما جلستُ العود قال لجواريه: امكثنّ فقد جاء اسحق. فقدمتُ ذلك الورد بين يديه، وأنشدت الابيات. فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستار. ثم أخرج اليّ بدرة فيها عشرة آلاف درهم، فأعدتُ الابيات.

١ - الاغاني (طبعة الكتبية العلمية) ص ٩٨

فأخرج اليّ بدرة أخرى ، فأعدتُ الثالثة ، فأخرج بدرة ثالثة . فخرج اليّ خادم وقال : يقول لك أمير المؤمنين : لو دُمتَ على إنشادك ، لدُمنا على البدرة ، ولو الى الليل ... » (١)

***

ولعلّ أشد الخلفاء العباسيين شغفاً بالورد جعفر المتوكل على الله . والحق أن حياته الخاصة لتدل على رقة ذوقه وظرافة لهوه . وكأنهُ كان فناناً شاعراً ، وان لم يؤثر عنهُ قول من شعر

ذكر الصفدي أن المتوكل كان مفتوناً بالورد . بلغ من فتنته به انهُ استأثر به وحده وحرّمهُ على الناس ، وكان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ، ويأمر بالفرش الاحمر كالورد ، وكان الورد لا يرى الاّ في مجلسه وكان يقول : أنا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكل منا أولى بصاحبه » (٢)

ووجدنا في كتاب « الديارات » للشابشتي ، الذي حققناه وعلقنا عليه وأعددناه للطبع (٣) أن المتوكل شرب في بركوارا . وهو قصر من قصوره . فقال لندمائه « أرأيتم ان لم تكن أيام الورد ، لا نعمل نحن شاذكلي ؟ (والشاذكلي عيد يحتفلون فيه ميلاد الورد) فقالوا يا أمير المؤمنين لا يكون الشاذكلي الاّ بالورد . فقال : بلى . ادعوا لي عبيد الله بن يحيى بن خضر . فقال له : تقدم بأن تضرب لي دراهم في كل درهم حبتان . فتقدم عبيد الله في ضربها ، فضربت ، وعرفهُ الخبر . فقال : اصبغ منها الحمرة والصفرة والسواد (٤) واترك

(١) الاغاني ، طبعة المطبعة المصرية الاميرية ١٣٠١ هـ) ص ١٠٥

(٢) انظر الاعلام بزركلي مادة المتوكل . وقد عثرت على هذا النص أيضاً في مضاهي البدور للغزولي ج ٢ ص ٩٣

(٣) انظر ما كتبناه عن هذا الكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وفي الرسالة بمصر

(٤) يعني ان الورد الاحمر الذي يرى في ذلك العهد عند العرب هو مختلف وأحمر بحمرة ذكر مسحب للنور فالحمرة التي نراها في ورد الشعر ، ونرى وروداً أشد حمرة منها تميل له وأكثر زكية ، ونرى بالحمرة ، ورد تضرب أحمر قاني حمرة ، وتسمى الاحمر الذي يميل منه البياض (وانظر مضاهي البدور ج ١ ص ٩٦)

بعضها على حاله . ثم تقدم الى الخدم والحاشية ، وكانوا سبعمائة ، بأن يعد كل واحد منهم قناة جديداً وقلنسوة على خلاف لون الورد وقلنسوته ، ففعلوا . ثم عمد الى يوم تحركت فيه الريح ، فنصب له قبة لها أربعون باباً فاصطبح فيها ، والندماء حوله . ولبس الخدم الكسوة التي أعدها ، وأمر بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، أولاً أولاً . فكانت الريح تحمل الدراهم فتقف بين السماء والأرض كما يقف الورد . (قال) : فكان ذلك اليوم من أحسن أيام المتوكل وأظرفها

***

وكان الورد يبعث الشعر ويهيجه في صدر بعض الخلفاء . فقد ذكر ان الواثق كان لا يشرب الا على الورد والريحان . وذكروا أن خادمه مهج ناوله ذات يوم وروداً وهو يشرب فأنشد

حبّاك بالنرجس والورد معتدلُ القامة والنقدّ
فأُلهبتْ عيناه نار الهوى وزاد في اللوعة والوجد
أمّلتُ بالملكِ له قربة فصار مُلكي سببَ البعدِ
ورحمته سكراتُ الهوى فمال بالوصل الى الصدّ
إن سئل البذل ثنى عطفه وأسبلَ الدمعَ على الخدّ
مولىً تشكى الظلم من عبده فأنصفوا المولى من العبد !

فأجمعوا انه ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الأبيات في الصودة [1]

***

فهذه طرف من شغف الخلفاء العباسيين بالورد تدل على مبلغ الحضارة والترف ، وتنبئنا بما فيها من لذة وطرافة وجمال

دمشق — بستان الرئيس

---

[1] ... ص ١٣٧